2002
مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع

تراث التنوير

الإمام محمد عبده

الإسلام
بين العلم والمدنية

تراث التنوير تراث التنوير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تراث التنوير

مكتبة الأسرة 2002

الإمام محمد عبده

الإسلام بين العلم والمدنية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تراث التنوير

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى :

صبرى عبد الواحد

كمبيوتر جرافيك :

مهندس : سامى بخيت



الاسلام والمسلمون

الانسان عالم صناعى

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ·

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهية ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، وأقواته من معالجة الأرض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا ، واكتانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتغنمه فيه من دواعى ترفه ونعيمه انما هى صور أعماله ومجالى أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو فى صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل · هذا هو الانسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ·

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية ، من الادراك والتعقل والاخلاص والملكات والانفعالات

الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته وجبنته ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعا تابع لما يصادفه في ترسيته الاولى وما يودع في نفســه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم مرامي أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الالهية أو ركونه الى البحث في الخوض الطبيعية وعنايته باكتشافه الحقيقــة في كل شيء أو وقوفــه عند بادىء الرأى فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنهــا لديه الآباء والأمهــات والأقوام والعشــــائر والمخالطون ، أما هواء المولد والمربى ونوع المزاج وشلل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر لها في الأعراض النفسية والصفات الروحانية ، الا ما يكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الآثر فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به وكأن لم يكن أودع في الطبع • نعم أن أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا ، فالانسان في عقلــه وصفات روحه عالم صناعي •

هذا مما لا يرتاب فيــه العقلاء ، ولكن هل تذكــر ، مع هذا ، ان الأعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وان الروح هي السلطان القاهر على البــدن ؟ أظنــك لا تحتاج فيه الى تذكر لانه مما لا يغرب عن الأذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكرا يجحدها •

ان الدين وضع الهي ومعلمه والداعي اليه البشر ، تتلقــاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو منســوب لمن لم يختصــهم الله

بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الأبدان على ما نشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها الى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الأعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال ·

وبعد فموضوع الديانة المسيحية والديانة الاسلامية بحث طويل الذيل ، وانما نأتي به على اجمال ينبئك عن تفصيل ·

الديانة المسيحية

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » · ومن أخباره أن الملوك انما ولايتهم على الأجساد ، وهي فانية ، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده · فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرا في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم اليه ، فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون في افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار

الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بهـــا على غيرهم ، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم فى أحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها ·

الديانة الاسلامية

أما الديانة الاسلامية فقد وضـع أساسها على طلب الغلبـة والشوكة والافتتاح والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها · فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العـالم ، وان يسبقوا جميـع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمهـا من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها · ومن تأمل فى آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقـد صبغ بحب الغلبـة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعى اليها بقـدر الطاقة البشريـة فضـلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ أن الشرع الاسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسـكرية والتمرن عليهـا ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ، ولا فى اختراع الآلات · حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم · واضطروا لتقليدها فيما

يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهـــم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها (١) ومن وازن بين الديانتين حـــار فكره كيف اخترع مدفــع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ؟ وكيف وجـدت بندقية مرتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا ، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخاليــة والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما ؟

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيــدة ؟ هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى واقتفــاء سيرة يوشـــــع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حكث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شيء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح أو وجـد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الأفــكار من سلطة الدين ، أو تغاضت النفوس عن الانتعاش بنقشته ، وهو أول حاكم

---

(١) هذا وصف دقيق صحيح لما كانت عليه حالة العرب جميعــا فى عصر الأستاذ الامام محمد عبده ، ولكن الآية قد تبدلت فى عهد الثورة الحاضر الذى عنيت فيه الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، والأمة العربية عامة باتباع الآية الكريمة : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى جانب النهوض بالتصنيع ، ومن أهم وأعظم مظاهره مصانع الأسلحة والذخيرة . ولكن الدعوة الى التسليح ما زالت قائمة فى كل وقت لهذا الجيل ، وللأجيال القادمة ، ولكل أمة عربية واسلامية فى الشرق والغرب .

عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه أن يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ أينسب هذا الى اختلاف الأجناس ـ وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة ويتقاربون في الأنساب الدانية ـ أينسب هذا الى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الأمكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار وأدهشت الألباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها · كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية (١) أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها·ذكر ملكام سرجم (انكليزى) في تاريخ الفرس ان محمودا الغزنوى (٢) كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع ، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها · فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها الى ما لم يكن في قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم·مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

ان الدين المسيحى انما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات

(١) الآلات النارية ، هي التى عرفت أيام العرب باسم « النار الاغريقية » ولا يعرف بالضبط من هم مخترعوها · وهي أقرب ما تكون ما عرف أيام الحرب العالمية الثانية باسم « سلة مولوتوف » غير أن الفرق بينهما أن الأولى كانت تتحمل مواد ملتهبة وتقذف بما يشبه المقلاع على العدو ، فتشتعل النيران حيث تقع · أما سلة مولوتوف فتحمل عدة قنابل تنفجر في عدة مواضع بدلا من موضع واحد ·

(٢) السلطان محمود الغزنوى من أشهر رجال التاريخ ، وكان مسلما متدينا ، فتح غزنة « أفغانستان » ودخل الهند غازيا ، وأدخل فيها الدين الاسلامى ·

ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الأولى ، وجاء الدين المسيحى اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهد مما يتناوله الكافة من النـاس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم ان الأحبـار الرومانيين (١) لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية وجـرت منها مجرى الأصـول ، ولحقـها على الأثر تزعزع عقـائد المسـيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جرائيم وجودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجـال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون ·

أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حـربى حظا . وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلبـاس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصـوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ،

---

(١) لقد عارض الأباطرة الرومان قيام الدين المسيحى فى بداية الأمر لأنهم كانوا يعتقدون أن فى هذا انتقاصا من سلطتهم الزمنية فضلا عن الدينية ·

ينسبونهـــا الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وأن ما يلصـق منهـا بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصـحابه ، فلم تكن دراســة الدين على طريقهـــا القويم الا منحصرة فى دوائر مخصوصة ، وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة فى وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه .

الا أن هذه العوارض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ، وان كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقـادات الصحيحة التى لم يحـرموها بالمرة تدافـع دائم وتغالب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئـدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلابـد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الأغيان ، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتـابهم المنزل ، وأمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، ولا يعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الأمور .

المسألة الاسلامية

بين هانوتو والامام

كتب مسيو هانوتو وزير خارجية فـرنسا فى جريدة « الجرنال » الباريسية مقالا عن الاسلام والمسألة الاسلامية نشر فى جريدة المؤيد ٠ فرد عليـه الأسـتاذ الامام بمقال بليغ أفحمه فى كل ما جاء به ٠

مقال مسيو هانونو

وزير خارجية فرنسا

أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية ٠

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ، ولكن كان لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله ٠

فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته ٠ جاء القديس (لويس) (١) الذى ينتمى الى أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالأيالات الأفريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابوليون الأول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التى كانت

---

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا المتدين ، وهو قائد الحملة الصليبية التاسعة التى هزمت فى المنصورة عام ١٢٥٠ ٠ وأسر هذا القديس نفسه فى دار ابن لقمان ٠

لا تنى فى متابعة الغارات على القـارة الأوربية ، فأصبحت الجزائر فى أيديهم منـذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسى منـذ عشرين عاما (١٩١٢) .

قد وصلت طلائع قوانا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت، وظنهم أنهم صـاروا فى أمنـع موئل ، شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغـال) أخبرتهـم بأن الأوربيين امتلكوها وتقـدموا منهم الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجوسيكورو) وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام ، وأكد لهم هذه الأخبار أيضا رسلهم الذين يخترقون أفريقيـة الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهـات (صانعا) و (تجاوندره) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الألوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وان وابوراتهم فى (الأصـل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهريـة أو البحريـة بالبابورات بدلا من البواخـر) تشق عبـاب نهـرى (الكونغو) و (الشارى) (١) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفهما ، عندئذ كان يطرق الأذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رءوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر ، وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعـة فـلا يزال له السمو عليه ، ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا) .

---

(١) نهر شارى هو الذى يصب فى بحيرة شاد فى وسـط غرب افريقيا .

اذن فقد صــارت (فرنسا) بكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهى تدير اليوم شئونه ، وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبانه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الأرجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الأفريقية هى الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) و « عرب » من آثار المدنية التى كانت القارة الأفريقية منبتا لثمارها اليانعة .

خطــر الاســلام

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه أربعين مليونا ، لامرشد له الا نفسه ، لا عائــلات ملوكية فيه تتنازعه الحــكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساوى ضعف عدده وهو ذلك الشعب المنتشر فى الأرجــاء الفسيحة والأصــقاع المجهولة ، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الاسلامى السامى الأصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهـــده لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الأسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه ـ قــريب منا فى (طرابلس الغرب) التى تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الأبيض المتوسط ، وبين الطوائف الاسلاميــة فى بــاطن القــارة الأفريقية ـ قريب منا فى (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية)

فصانمتها اياها فى الأقطار الهندية وهو موجود وشائع فى (آسيا) حيث لا يزال قائما فى (بيت المقدس) وناشرا أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد (الصين) فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليونا المسلمين الموجودين فى الصين لا يلبسون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى) • وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشرا فى الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس زمرا وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الأفريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار ، قواعد الحياة ومبادىء السلوك فى هذه الدنيا ، كما أن أمثالهم فى القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامى ، ثم هو ، أى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الأركان فى اوربا عينها ، أعنى فى الآستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين •

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف ، وتعمموا بالعمائم الكبيرة ، جالسين على الأرائك بجانب سفراء الدول • هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يتحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح ، منتظرين مجىء دورهم فى المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم • وكل المسلمين ممن يقيمون فى

(الأستانــة) أو فى (مــراكش) ، فى أرجــاء آسيا أو أصقــاع أفريقية ، من بدو كانوا أو حضر ، واقفين فى أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين اذا حانت الصلاة ، يتوضئون أو بتيممون بالتراب ، مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة ، وسواء منهــم الذين يلبســون الثيــاب الواســعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان فى نطاقهم ، أو يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة فى باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر جهة واحدة ، هى الأرض المقدسة ، هى الأرض التى تكتنفها الصحراء ، هى الأرض التى عاش فيها محمد ، هى الأرض التى تتضمن جسمه المبارك ، فى قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه الا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هى الأرض التى جاء منها الآباء ويعودااليها الأبناء بحركة مستمرة ، هى الحج الأبدى الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ، ويمدون اليــه أعناقهــم ولا يجدون لذة فى الحياة الا بأمل العودة اليــه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة • وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطـــة واحدة ، بهــا يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التى يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هى القطب الذى تنتهى اليه قوة المغناطيسية • ومتى اقتربوا من الكعبــة ـ من البيت الحرام ـ من بئر زمزم الذى ينبع منــه المــاء المقدس ـ من الحجر الأسود المحاط باطار من فضـــة ـ من الركن الذى يقولون عنه أنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام ـ اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا

العبـادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصـــوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبـادة ٠

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجى الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به ، لأنه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة بدار سلام وانما هى « دار حرب » (١) فانها لاتزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان ٠ والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربـة ولا بدرجة من المتانـة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها ٠

ترى فى قرانا وبلداننا درويشـــا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديتـــه البيضاء المقلمة بخطوط ســـوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويـه عن ذلك شىء ـ هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمـة الى خيمـة ، ومن قرية الى قرية ، راويـا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، انما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا ٠

ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ، ينخرط فى سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لهـا فى الغالب مراكز ولا زوايا بالأرض الداخلة فى دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملـين فى هذه الطوائف والمـذاهب الكثيرة يخترقون

(١) كان عند المسلمين داران: دار السلام ودار الحرب ، ويقصدون بالأخيرة مناطق سكنى العدو المتربص على حدود الاسلام ٠ أما مدن الحدود فتسمى بالثغور ٠

بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنـا الافريقيـة ، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لا يرى فى اكرامه له أقل من أن ينحـر له شاة ، هذا عـدا ما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لان مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ ٠

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون. وربما كانت علاقتهم مع رجـال حكومتنـا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام ٠ وما ذلك الا لأن الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لانها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهة المدنيـة الحاضرة ، وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل الاله آمون (١) وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ٠ ومن مذهبهم التشديـد فى رعاية القواعـد الدينية وقد لبثوا زمنا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن اخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية ٠ غير ان هذا

---

(١) لعله يقصد به واحة سيوة ٠ ومن المعروف ان معبد الاله أمون كان يقع فى هذه الواحة ٠ ولا يغيب عن البال أن الاسكندر الأكبر المقدونى قد زار هذه الواحة ، ودخل حرم هذا المعبد فيها حيث أخذ من الهه أمون تفويضا بحكم العالم ٠ وقد ذكر هذا المؤرخ و ٠ تارن فى كتابه بعنوان « الاسكندر الأكبر
"Alexander The Great"

لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعناتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى أفريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر مقصورا على وسط القارة الأفريقية ، فانه توجد بالأستانه نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا اذا أغمضنا الطرف ٠

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينقادون لأوامر سرية ، تناقلوها بالأفواه ، وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والأفواج منهم لمهاجرة أوطانهم ، والذهاب الى آسيا الصغرى حيث الأمن المرجو ٠

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح ، وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تنبط هممهم ٠ نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ، ففى مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينيـة والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض ، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه ٠

المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينيـة ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع أنها من الأمور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها ٠ ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخـرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق ٠ اذا تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ، أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصـة

يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ، أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفيه التى لم يوفق دين من الأديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين ·

وغاية ما عرف منذ الأعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبا تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالأول منهما يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن · ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات ·

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وايهان عزيمته بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، اذ من قواعده ان الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية (١) وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه

(١) معنى كلمة « بوذا » هى كشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم · وكان هدف المعلم بوذا الذى عرف بهذا الاسم هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها · وقد جاء فى نص قديم ينسب اليه – الى بوذا – ويوضح حقيقة الرسالة التى كافح من أجلها ما يلى :

« لما كان المحيط الكبير ليس الا مذاقا واحدا هو الملح الاجاج ، كذلك الحال مع هذه العقيدة ليس لها الا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر » ·

الاله بالانسان فى أوصافه المادية ، يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطـل » يمكنه أن يعتبر فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته ٠

وقد ظهرت على أطـلال العالم القديم بعد خمسمائـة عام من انقضائه ديانتان ، أحداهما ربانية والثانية بشرية تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التنـاقض ٠ أما الأولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ، على حين أن الديانـة الثانية وهى الاسلام المشوبـة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ٠

هذان الميلان المختلفان يظهـران ظهورا واضحا فى الاعتقـاد الأساسى لكلتا الديانتين ، وهو أصل الالوهية ، أما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الأصل الى الثالوث أى ان الاله الأب وأوجد الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون يسوع المسيح الها وبشرا ــ هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحـو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئـة التى

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه اربعين مليونا ،

اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانيـة الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : « لا اله الا الله » ٠

غير ان ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة ، اذ هو يحملهم على اتيـان الأعمال التى تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حـين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضـاء بحسب ناموس لا يتحول ولايتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة

بالله الذى هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله » ٠

ترى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الأخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية ٠

رأيان فى الاسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الأشباه نفرع الطريقين المختلفين للذين أتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين ٠ قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى فرأى فى الاسلام العدو الالد والخصم الأشد ٠ قال المسيو كيمون فى كتابه (باثولوجيا الاسلام) : « ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وما قبر محمد فى مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله الى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات ٠٠ الخ الخ » ٠

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية

وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضا) والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا أيضا قوله) ··· وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى ·· أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم ·

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى · قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقا) معترفا ومقرا أن الاسلام هو الدين المسيحى محسنا ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود ان يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على ما دونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « ان الاسلام قنطرة للأمم الأفريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه مقصورا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد » ·

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وان افترقا ، متصل بعضهما ببعض وموجودان فى حين واحد · وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدأين ، وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو

قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما ٠

وتلك الميول المتعاكسة التي برزت من مكان الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ ، هى التى أحدثت التناقض فى أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية ، وأدت الى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم، ما نقض ، الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما فى البلاد الأفريقية من عدم السير على وتيرة واحدة ٠ هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان فى أنه لايصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين أو خمسة فقط ، بل يسرى على نصف تارة بأكملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الأمان على الأهالى وأبطال التجارة فى الرقيق ٠

المسألة خطيرة

فالمسألة اذن خطيرة جدا ولابد من الاعتماد على أمر واحد فى حلها ، اذ لا يكفى للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول الى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من ألزم الأشياء لموضوع تلك المسألة وأشدها ارتباطا به ٠

قد سبق لى وقتما تم تشكيل مملكتنا الأفريقية تشكيلا تاما ، ان سألت ـ ولازلت أكرر هذا السؤال ـ الحكومة أن تبحث بحثا علنيا فى علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه ٠

ان الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي ، أو بعبارة أعم مع المسلم،اذ منه يشترى الأرض التى يريد استنباتها، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدأهما الأخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطرا ، اذا كانت العلاقة بين الأهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم ، والقيام على شئونهم »، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أنعما النظر فى خريطة الأنحاء الواسعة والاصقاع القصبة التى عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها .

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامى . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئونا بما نجهله من بقية أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الأمر الذى نحن بصدده ، وهو من أكثرها غموضا والتباسا ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى

نفيض عينينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الأنوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهمـا من الحقائق رسالة تـذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدى الموظفـين والمستعمرين ، وتنشر بين الطـلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الأضاليـل والترهـات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الأقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل، فيعم نفعه وتجتنى ثماره ،وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولهـا لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى النـدم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها • وكانت كلمة واحد كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم •

ولست أظن أحدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق • وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها •

أشرت سابقـا الى الصلة الأكيـدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامى ، والمسلمون فى الأحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنيـة ، اذ ينحصر الوطن عنـدهم فى الاسلام ، فلا يجوز أن يتولاهـا الا من كان من عقيدتهم • ولم تدخـل رءوسهم حتى الآن فـكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمنن مآخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية •

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقـلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون

جلبة ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباى ، وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الأمور الادارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الأهلون ولم تنخدش له احساساتهم ، اذ لبثت المساجد مغلقة فى أوجه المسيحيين ، والأملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها ، وتركت أزمة الأحكام بأيدى القواد والقضاة ، ولم يغير شىء من القوانين الأهلية الا برضا وتصديق من الأهالى ، وربما كان يطلب منهم ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الأفكار الأوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدى ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر .

اذن يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . اذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الأسيوى . أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، أنبتت فى قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ، الا وهى البلاد التونسية .

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة وورومية وبيزنطية والعرب و « سان لويس » و « شارلكان » فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ، حتى تأكدت نقط بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الأحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الأراضى الخصبة والسماء الصافية الاديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب فى الأقطار التونسية من المدنيات القديمة ، تندثر تماما ولم ينمح أثرها كى تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضى ٠

ان مسجد القيروان (١) الجامع شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التى عبدت فيها تانيت ٠ وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب فى هذه الأرض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش فى خلال الجيل الذى نطرق الآن أبوابه ٠

مقال هانوتو الثانى

من المسلم أنه يتعذر على الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التى ترد الى بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلونى شكرا جزيلا ، وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به على وأبانوه لى محفوظ فى مخيلتى ٠ ولا يبرح عن ذاكرتى ، واننى أجد فى تبادل الأفكار على هذا المثال

(١) القيروان مدينة تونسية شهيرة بمسجدها ٠ أنشأها عقبة بن نافع عام ٦٧٠ م فصارت عاصمة افريقيا وقد بلغت أوج عزها على أيام الملوك الأغالبة فى القرن التاسع الميلادى ٠ وكانت دارا للصناعة ومحطا للقوافل وسوقا للتجارة ٠

خير معوان وأحسن مشجع ، وبالرغم مما يخالجنى من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لا مندوحة لى من العود الى بعض المناقشات التى أثار عجاجها الفصــلان اللذان نشرتهما حديثا فى مسألة الاسلام ، والحق يقال أننى أصبحت بسببهما كما يقال ، بين نارين فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : اننى تظاهرت بالميل للاسلام ، واتخذنى المسلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين ٠

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل بلغتنا ، وهو فى نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا فى أتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها ، فان جريدة « المؤيد » التى تظهر فى مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ، ولعل القرا‌ء يذكرون أننى أوردت فيهما آراء كيمون التى أبداها فى كتابه (باثولوجيا الاسلام) وان ايرادى لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ أشرت الى خطر شدتها ، وأبنت العواقب الضارة التى يفضى اليها الجدال السياسى فى الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التى أوردتها ، وضعت فى آخر كل عبارة من عباراته كلمتى (أنا أنقل) محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك ٠

بالرغــم من هذه الاحتيــــاطات نسبت الى تلك الأفــكار التى عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى أن أحد (١) كبار أئمة

(١) يشير الى الشيخ محمد عبده ٠ وسيأتى رده فى الفصل القادم ٠

الدين الاسلامى كلف نفسه مئونة الاجابة فى جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكارى ، بل هى نقيض ما ذهبت الى تعضيده واستحسانه فى بحثى ، ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار فى بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته فى الأصل الفرنسى أم وقف عليه من الترجمة . أما أنه لم يفهم مرادى وأما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكرتى التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى ، وكلها احترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق على احدى الجرائد العربية التى تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة فى جميع العالم الاسلامى ألا وهى جـــريدة « الأهـــرام » قــد أتت بتلك الملاحظـــات أحسن ممــا أستطيع ايرادها به ، فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذى يدير فى آن واحد جريدة « البيراميد الفرنسية » قد اقتفى أثر ملاحظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لى بعد مناقشته التى روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام ، أو شىء كثير من القول أضمه الى قوله ، على أننى أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها فى نظرى كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهى أن منشأ المشاكل والصعوبات التى تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ فى معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، اذ كثيرا ما كان الغلط الناشىء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن ادراك معنى

جملة ، أو فهم مغزى رأى من مرامى حيلة من حيل المناظرة ، سببا فى جر ما لا يحصى من المصائب بل سببا فى انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ، وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق .

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا شيئا حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التى لا فائدة منها ، وتيسر

العود الى النقطة الأولى التي كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة فى تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التى جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة • ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة فى الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما اذا كان فى الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس فى فهم مقاصد بعضهم بعضا •

ومن الأمور التى لا يزال خاطرى منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل وأخطرها تتضمن فى ذاتها الحل الملائم لهـا والمطابق للانصاف والسلام ، وكنت ولازلت على اعتقاد وطيد فى المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار ، بأنه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصـوى المسالمة والاتفاق ؛ واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الاهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما •

وقد اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة فى هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء اليه القوى فهو من آخريات الوسائل وأحطها ، وهو حيلة من لا حيلة له •

ويظن الناس فى الغالب أن الواجب التفرقة بين الاتفـاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ، اذ بين السلم والحرب

ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها . وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية ، اذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته . لاننا اذا نظرنا فى أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينها ، أعظم من الانفراج المستحكم بينها • وخلاصة القول أن معيشة بنى الانسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن اراداتهم •

وقد حدا بى هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية • وقد انتهت الى رسالتان غريبتان فى هذا الباب . أحداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة « مشورت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها (التسامح الاسلامى) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال « لا فيجرى » وهى : (أجاهر علانية بأننى أعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر فى دعـوتهم الى الدين المسيحى اثمـــا من الآثام وضربا من ضروب الجنون) ، وانـه ليفيض بى الكـــلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ، ولكنى على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التى نقصدها ، وان الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام •

وقد وردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الوقت الحاضر ، وانى

آسف شديد الأسف من عدم امكانى نشر مضمونها بأكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها . ولا ريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير أن فى المباحث الدينية ، ولو كانت متعلقة بالاسلام . شيئا من الاكفهرار والتجهم . على أن هذا لا يمنعنى من ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامى ، وها هى : « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لا يقدم لاحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة مما يخوله لأنفسهم رجال الاكليروس (الدين) فى الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ما هو الاسلام ، لأجاب المسلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف ـ فالديانة القرآنية لا تهوى بالانسان باقصاء الاله عنه فى نهاية الفضاء ـ اذ جاء فى القرآن الشريف (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الأدبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشرى » . ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامى يراه أرقى وأحسن ما يدفع عنه به ، وأخذ يعتب على لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسألة السياسية .

واننى أعترف باننى انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القارىء لا يمل حديثى فاننى أورد هنا بايجاز كيفية الأسباب التى حملتنى على هذه السياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية :

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ الكردينال ريشليو ، وصلت الى النقطة التي أفضت به الظروف الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله ، واستلفتت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في ابان استلامه زمام الأحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسألة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت في المسألة الصليبية (١) .

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى . واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره في خطاه الأولى ، ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ، ومنهم الدوق دي نيفير ، والأب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم في أفكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة ماري دي متديسي الذى أجلس ريشليو على منصة الأحكام ، وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين .

(١) ليس عجيبا أن يدافع الوزير هانوتو الفرنسي عن الوزير الفرنسي ريشليو . والحقيقة التي تبدو واضحة من تاريخ ريشليو انه كان رجلا شديد الدهاء ، عظيم الذكاء ، وان تنحيه عن الاشتراك في الحروب الصليبية ، وعدم الاستجابة لرغبة الذين أشاروا عليه بذلك ، لم يكن ذلك منه الا بدوافع اخرى غير عدم الرغبة الشخصية ، فقد كان أول كل شيء يريد أن يوطد مكانته ، ويرسي قواعد حكمه على أسس قوية . وكان ريشليو يحارب مختلف التيارات السياسية في بلاده ، ويقف بالمرصاد لمؤامرات خصومه ، فلم يكن من حسن الرأى بتاتا أن يرسل الى خارج بلاده جيشا هو في أمس الحاجة اليه داخل البلاد . وكان من ناحية أخرى لا يرى ثمرة لمثل هذه الحروب المشتركة ، مما يمكن أن يعود على فرنسا بفوائد يستطيع أن يواجه بها خصومه الكثيرين ، ويفخر بها عليهم . فلم يكن تنحيه عن الحروب الصليبية نزعة استقلالته كما يقول هانوتو ، ولكنها دواعي السياسة الداخلية هي التي أرغمته على هذا الموقف .

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة من أصدقائه رافضا ان يكون اله بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام فحارب ـ كما هو مشهور ـ الأسرة النمساوية · والحق يقال أن الكرينال كان من أقل الناس تعصبا ، فانه قبل أن يأتى بما عمل به ، بنى عمله على أسباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وأن هذه الأسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها ·

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال فى أســبانيا وافريقية الى حيث تلك البقعة التى تم بها الاقتران بين العالمين الشرقى والغربى ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثا ومفكرا · شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أى أطلالها فى عهد هانيبال (١) والقديس أوغسطين (٢) وفى عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لى وأنا واقف على تلك الطلول أن الأرض التى كأنت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام ·

أما الأسباب التى حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية للشرق ابينها فى يوم ما · ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة الحياتية فى الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء

---

(١) هانيبال قائد افريقى من قرطاجنه دوخ الرومان والدولة الرومانيه فى عز مجدها وسطوتها ، وقد هاجم روما براً من ناحية اسبانيا ثم عبر جبال البرانس الى فرنسا ثم عبر جبال الألب الى حوض البوفى ايطاليا ، وبعدئذ اتجه جنوبا الى ان هزمته روما فى موقعة توازمين عام ٢٠٢ قبل الميلاد · ولقد تعقبت روما القرطاجيين من بعده الى ان انتهى الأمر بتدميرهم قرطاجة (فى مكان تونس الحالية) تدميرا تاما عام ١٤٦ ق٠م ·

(٢) القديس سانت أوغسطين كان رجلا متدينا راعته غزوات الجرمان الوثنيين المروعة على مدينة روما المسيحية فكتب كتابه المشهور « مدينة الله » صور فيه اختلاجاته وعقيدته ، وأهاب بالمسيحيين انقاذ مدينتهم وديانتهم ·

الاتفاق والوئام فى عين المكان الذى اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء، بحثت عن أصول هذه الأسباب فأشرت الى السلم الناشىء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لا يظن أنهما يجتمعان فى وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الآخر . لما لاحظت هذه الأمور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ، اذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما يكن من الأمر فان من الأمور المهمة قيام الأفكار فى البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الأبعاد والتفريق .

هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشىء مما خطأه به الأستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح .

حديث مع هانوتو لصاحب جريدة الأهرام

فى يوليو سنة ١٩٠٠ ـ الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الأستاذ الامام سافر الأستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد الأهرام يوم ١٦ من هذا الشهر ، وقد قدمه صاحب الأهرام بما يلى :

رأيت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو وأقف منـه على حقيقة الأحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الأخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق ، وكنا نعتقد ، كما قالت الأهرام مرارا وتكرارا ، ان تقدم الشرق يكون بتقدم الأمة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فاذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وأنا لم أكتب الا الى أبناء وطنى الفرنسيين ، ولم أستشهد بكيمون ، وهو يونانى الجنس ، الا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها ، فان كثيرين من الكتاب الألمانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصـــة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ، ونجاحهم بعيد ، لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء واحدة ، وهى انه كلما تقدمت أوربا تأخر

الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع ان الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة ، وانما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادى أن الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس ، فذكرتهـا مثالا أؤيد به أقوالى وسياستى هـذه هى روح كتابتى السابقة وانها ستكون روح اللاحقة ٠

والذى دعانى الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان فى الأعصر الخالية ، وما دفعهم فى الأيام الأخيرة الى ذلك الا الحوادث الأرضية وغيرها (١) ، ولما كنت قد وقفت نفسى لدراسة حياة ريشليو السياسى الشهير ، وسرت فى أكثر أعمالى وكتاباتى على منهاجه ، وعرفت أن هذا الرجل مع أنه كاثوليكى وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع أنه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذا السياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الأعصر ، أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ٠ لا لعمرى ، فلهذا عارضت بالأمس ، ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لا يريد

---

(١) اختلفت الآراء وتضاربت فى تقرير دوافع الحروب الصليبية فقال البعض انها حروب دينية بحتة ، وقال آخرون انها حروب استعمارية ٠ والواقع الذى يستطيع كل من تتبع تاريخ هذه الحروب ان يلمسه ويدركه ، هو أن هذه الحروب كانت دوافعها دينية واستعمارية ٠

حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية ، فهى عدوة المدنية بل هى أفظع الأعمال .

على أن معارضتى لأمثال هؤلاء الكتاب ، أى نقضى لأقوالهم ، لا يمنعنى عن أن أقول لكم الحقيقة ، لأنه يستحيل على أن أقول أن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا فى العدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل على أن أقول ان حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسى ، فأعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد ، بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية فى أحوال الحكومات وشئون الشعب ، وأن يكون للمعتقد حق الأدبيات الدينية بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

واعلم أن الذى أيد هذه السياسة أيضا فى بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة روما وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أى الكردينال ريشليو ، فهو الذى قال بفصل السلطتين ، ولم تنسه واجباته الكنسية الدينية معرفة الحقيقة ، وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام .

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين فى مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقائد الشعوب التى تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ما سرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية .

وانى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ أو كاتب حر الضمير ، لا شأن لغيره فى معتقده الخاص ، ولكننى أحترم أدبيات كل دين

ومعتقده ، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرهـا ، ولكن الماديات غير الأدبيات ، والأولى من سئون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم في مادينها لابد أن تموت ، اذ لا حياة بلا مادة ، والهكم أنتم أيها الشرقيون اله أوربا واله أمريكا ، اذ أن اله الجميع واحـد ، ولا يمـكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربى منه على الأمريكي ، فالشرقى . بل ان الشرقيين عموما ، أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا . وكثيرا ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل الى الأمريكى منه الى الأوربى أو الشرقى ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حى ، هذا يشتغل مجتهدا ، وكلما زادت أرباحه زاد نشاطا واقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى وضيق أوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب ، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لا حراك بهـا ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها •

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت لـه : اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد أنهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك في أهل الجزائر ، ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسية أن ترى فى أحوال هؤلاء ؟

فقال : أما التونسيون فلا خلاف في أنهم مسرورون بحالتهم ، ونحن قد دخلنـا بلادهم وهى قاع صفصف فوق شملهـا أفراد حكموها • وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية . فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصيه . ولم نسألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لأضم المستعمرة الى

فرنسا ، كما فعلنا فى مدغشقر بالرغم من معارضتى ذلك ، وقد رضيت به منقادا لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا فى ذلك ، وسأكتب كثيرا فى هذا الموضوع ، لأنى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأملى ألا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى وشرعت حكومتنا فى انفاذه .

ـ قلت : انى أعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين ، (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولا سيما فى الحكومة الاسلامية ، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا الا خصوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم .

قال هانوتو :

أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن أعتقد أن أوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين ، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة ، كما انى أعتقد أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية ، وأعتقد أيضا أن صاحب السلطتين ولا سيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجرى اصلاحات لا يقدر غيره عليها . ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانكلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس ، والمملكتان اسلاميتان ، فاذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم ؟ فاذا

قلتم أن أوربا تحول دون الاصلاحات ، اذن ، فلم تأخرتم واليابان تقدمت ؟ وهي لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى .

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحـوالهم ؟ أيظن رجالكم وكتابكم أننـا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟ .

وأنا أعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قد حان لكم الا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ، ما دام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين .

وانى أقول لك هـذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ما كتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى لهم وأنا فى منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم فى صـديق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصـم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يقبل مثل تلك السياسة . ولا أقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب الشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين .

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه فكلاهمـا راض عن حالة ، ومفضل لها على كل سلطة أجنبية أو أوربية ،

والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى ·

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوربا فى هذا الزمان ، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد اندفعت الى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، وأعلم أن فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى الى الاقتداء بالدول المذكورة · وانى أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانكليزى ، وينتصرون للفرنسى على الألمانى ، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هـذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شئونهم بل لمعارضـة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم · وأنت تعلم أن ألمانيـا أكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وأبعدهـا عن الاستعمار ، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين ، وهى التى سألت امتياز انشاء « سكة حديد » بغداد ، مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى الا الى مصلحتها السياسية ·

ثم قال لى : أنت تقول لى أن السـاسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما وأن أكثر الدول تطمع فى أملاكهم ، وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا ·

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسـة الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هـذه الثقة الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون

سياستهم هذه لما رأوه من تدخل أوربا فى أعمالهم ، ومن افعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء أكان فى بلاد الدولة أم فى سفارتها ، وأنت تقول لى أن فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل ، واليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين أن تنكروا أن بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى أوربا ، فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا وألمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل أغراضها فى المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الأرمنية ، بالرغم من هيـاج الرأى العـــام الأوربى وتصريـح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا أن فرنسا وبولونيـــا وغيرهما حالفت الدول العثمانيــة ضـــد دولة ثانيــة مسيحية ، مما يدل على أن ضـــالة أوربا مصلحتها الاقتصـــادية والسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ والم تحارب ايطاليا أوستريا ؟ وهل منع فرنسا منهبها الكاثوليكى من أن تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسى ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستانتى الألمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى ، وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى

الجنس السكسونى • وقد حاربهـا الانكليز وغرضهم سلب استقلالها •

كل هـذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق •

وانى أتساهل معك وأقول ، ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهى فى أوج مجدها وشامخ عزها ، ان تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسـلام ، لأن أوربا مسيحية . وهو زعم باطل ، فهل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ، ويمنعها عن انفاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة فى غيرهما ؟ أم تقبله فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ؟ ام تؤيده أنكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينـادون بهذه السياسـة ؟ كأنى بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغـات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأى العـام الأوربى اليهم • أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وان يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا أقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وانموذجا يعملون بموجبه ، أى كما فعل اليابانيون فى السنين الأخيرة • وأنت تعلم أن الذى

نبه اليابان هو خوفها من أوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوربى وذمه والمباهاة بمجد الاباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى ، لأنه عنصر غريب . أو لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام . ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا .. ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الأقصى والأقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية .

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها .

وتقول لى أن النهضة العلمية بدأت فى مصر ، وأن بعض الأفراد أنشئوا المدارس ، وأن الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام ، وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لأنى أرغب رغبة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فانى لا أجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا أيضا ، ولكننا

رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوما لأنى أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا ، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والارثوذكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسى ·

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الأولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت · والى هنا قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق ·

رد الاستاذ الامام

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريدة المؤيد نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق ·

بحثه السابق وشىء من تتمته انمـــا هو دافق من غيرته على شئون دولتـــه ، يريد أن يدعو قومه الى التبصر فى وضع قاعدة ممالكهم ، وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الأمر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضـــل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنسية · فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون لمعـاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم فى بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوســـهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنســا ، وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنسى فى طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الأرض وإلا وجب عليها أن تحمـــل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى ·

ولهذا جره البحث الى النظر فى أصـــول دين المســـلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما فى نفوس معتقديه ·

أما غايته من البحث وتناوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين ليثير عزائمهـم الى حرب المسـلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة (١) · فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانيـة · وتلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغـة الفرنسية ويتجملون بآداب الأمة الفرنسـية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسية ·

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار ـ حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها ـ حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم · ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب ·

أما ما جـاء فى التحكك بأصـول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم ·

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وانه جمع خليطـا من الصور وحشرها الى ذهنـه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بهـا من لا يعرف الاسـلام من الفرنسيين وهو جمهورهم ·

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السـامى والتفريق بينهما ، وان أحدهمـا قهـر الآخر وان التمدن الآرى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك ·

(١) يقصد بذلك الحروب الصليبية · ولعله يقصد البابا الفرنسى أربان الثانى ·

ان مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبهـــا مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه . ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الأرض أرضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة لا يباح له أن يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضـــاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى ان تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وانه لا يليق بالانسان أن يهتم بشئون العيش هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى . وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان . ولم يخالط الا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية .

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل اليه الأوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الأقطار الغربية ؟

ألم يخطر ببـاله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجيـــة ، وان العلم والمدنيـــة لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها هذا بمخالطة الأمم السامية كمـا يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين وهم أســـاتذة الأوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، واشـــهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ نعم ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقتما ظهر الاسلام .

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هي ذي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما اســـتفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقـــــاه من الادران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدى الرؤساء في سائر الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصـــعا يبهر أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون •

اني أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به •

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجـــال الدين المسيحى على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا • واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة •

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدنية السامية التي جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية •

ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنسية التي تنقاد بذكائهـــــا الى الاذكياء • والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وانمـــا العسر كل العسر ان يوجـــد ذلك العارف اليوم •

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها ٠

ان صح الحكم على الأديان ، بما يشــــاهد فى أحوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحـــكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شىء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصا ان يعطوه الرداء أيضا ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الأب ، ويقضى عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التى تليق برسول الهى ربانى يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقى ٠

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل ، وهل رأى مثالا لذلك فى المدنية الآرية التى تآخت مع الدين المسيحى ؟ العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن ٠ فان هذه المدنية انما هى مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شىء من ذلك ٠

أوصى المســيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشــغب المسيحيون على ملوكهـــم من غير فانقلبت الحال بهم ، وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك ٠

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جمــاعة من

الأمريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه • وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة ، فان كانت هذه هى المدنية الآرية التى صارعها الدين الاسـلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته •

من الساميين الفينيقيون وهم أسـاتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك • ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، أو استكمال شأن من شئونها • وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدينـة يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به ما يقابله •

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون • أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس وهو يعرفها ،

فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، ، وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى ، وسنأتى على الكلام فيها ٠

وقبل القاء القلم أذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه انى ان صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام ٠

- ٢ -

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من أمهات مسائل الدين ، القدر والتوحيد أو التنزيه ٠ وبعد أن خلط فى بيان وجه الأشكال فى المسألة الأولى واختلاف الناس فيها قديما ، وانهم انقسموا الى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته فى فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأى الأول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الأول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الأزلى ، والثانى بمذهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية ، وأن الأول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقدته الى مراتب الكمالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل ٠

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذانك المذهبين ، أى مذهبى الناس فى القدر ، وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالانسان الى المقام الالهى ، والأخرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهورا بينا فى الأصل الذى بنى عليه كل منهما ، فأصل الأول هو ايجاد

الاله الأب للاله الابن حتى كان ألها بشرا ، واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى .

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم فى ذلك لمن له أدنى المام بمذاهب الأمم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شىء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شىء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخلاف فى المسألة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الأيام . ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين ـ أتباع القديس توما (١) ـ أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع (لويولا) وهم قدرية واختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه الى غيرهم .

---

(١) القديس توما الاكوينى راهب دومينيكانى عاش فى الفترة من ١٢٢٥ الى ١٢٧٤ م . وهو الذى قال بأن الفلسفة لا تتعارض وتعاليم الدين المسيحى . وقد كان الاكوينى حجة فى اللاهوت والفلسفة . وجدير بالذكر أنه اطلع على آراء ابن سينا ، والامام الغزالى ، وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية . ومن مؤلفاته العديدة : « الخلاصة اللاهوتية » و « الخلاصة ضد الأمم » و « مدينة الله » .

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الأديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكئين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الأزمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم والبتار ٠

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة ـ ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين أن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب ٠ أليس هذا ادخل فى باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف٠

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالاسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » ـ بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن وان أنتم ألا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية ٠ وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها ٠

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الأمم أو فى تغريز الغرائز مثلا ٠ فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز

والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما ·

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذي لا يكل ، والدائب الذي لا يمل ، والساهر الذي لا ينام ، والجاد الذي لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في اتمام دعوته قائلا : الذي كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطا ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزما واحتياطا ·

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين وكانوا أكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي ومثلا في الدأب والكسب حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله ·

هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها · واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية ·

ولكن وا أسفاه نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره ·

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) •

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفهـا الحق ، ويطردها العقل ، وينبذهـا الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورهـا بقليـل ولم تبق بينهم بقـاء التوميين بين النصـارى • وغلب على المسلمـين مـذهب التوسـط بين الجبر والاختيار (١) ، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان ، وأخذه عن المسلمين فى أخريـات الأيام أهـل النظر من النصرانيـة مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم •

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهـم للمسلمين كما كان قد تنـكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم اوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لأعلى أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين ، يغشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة •

---

(١) اشتد النزاع بين طائفتى القدرية والمعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسى وذلك فى بداية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) • لقد قاوم أحمد بن حنبل (٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) طائفة المعتزلة التى كان على رأسها الوزير أحمد بن أبى دؤاد ، صسجنه الخليفة المأمون ، وأفرج عنه الخليفة المتوكل العباسى • ولقد اتصف ابن حنبل بشدة تمسكه بالتقاليد القديمة وكتابه يسمى « المسند » وهو يشتمل على ثلاثين ألف حديث •

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين ، فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى ·

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطـراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام ·

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقـة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهـم ، واستغـزروا من الثروة ، وأعـدوا لفـرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولتهم عنما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما ·

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين ·

والآن آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو في تهجمه على الاسلام ، وما نعنى بالكلام فيه هو التوحيـد والتنزيـه وخصمـه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الألوهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الأول ·

ان كان مسيو هانوتو قـرأ شـيئا في أحوال الأمم ونشـأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهى ظاهران في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت لا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدىء من وثنيى أفريقيا وتنتهى الى بوذيى الصين وبرهمن الهند ·

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله في أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له

الوجود الأعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يقظنه مسيو هانوتو وأمثاله لأن ما لا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود ·

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشئوا وثنيين ولازالت الوثنيــة ترق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائــع الكائنــات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة · وقف فيثا غورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع فى محو ما غشى نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الردئية التى كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها ·

وبعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت أشد بهاء وأبهر سطوعا ·

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى والبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم ·

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم تصعــد بأهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هنــاك على العــالم

بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة ـ الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا فى الايجاد ولا فى الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهى أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شئونه ٠

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : أحدهما من يعتقد الألوهية فى بعض الموجودات المشهودة ويقف عندما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر فى بعضها ٠

أما الأولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الأكوان ، فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوا ما ظهر المنفرد بالقدرة عليهم ، وانهم اليه يرجعون فى جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى فى شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها لكست بأبعد منهم فى النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم ٠ ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل فى محاربتها وتفترس الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، وأى درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة ٠

أما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان فى عقل أو شجاعة أو صدر منه مالا يألفون من الأعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهى فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار مادامو على تلك العقيدة ٠

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا فى استعبادهم ٠ وكم قاست الأمم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة ٠

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط ٠ ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه فى ملكوته ، كملك فى جبروته، يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة ــ منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجئون اليه فى مهمات أعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه ٠ واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ٠

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء وورثتهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها من زعمائهم ٠ ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته

الانسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده فى كثير من الأمم فى الشرق والغرب الى اليوم ·

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشئوا فى جوها الفاسد ·

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالأفراد فى سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم · ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم أنهم كانوا يسعون فى كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الألوهية ، ولا أن الألوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتهـا · أما السعى الى الفضائل فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم ·

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم · ولكنى أقول أن المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين (١) معروف عند أهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة الى تفصيل ما كان منه ·

---

(١) الامبراطور قسطنطين امبرطور الرومان منذ عام ٣٠٦ م · أول من اعترف بالدين المسيحى كدين قائم مثل باقى الديانات الوثنية وغير الوثنية · ويقال أن سبب ذلك الاعتراف انه وهو يشق طريقه من غرب أوربا الى العرش الامبراطورى ، ليقضى على منافسـه على العرش الامبراطورى واسمه ماكسنتيوس ، شاهد علامة الصليب فى السماء ومكتوب عليها هذه الجملة : « بهذه العلامة ستنتصر » لذلك

ثم لما امتد الغلو فى التشبيه ، ظهرت المظـــالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسىء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد فى الأمم النصرانية ، حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما ســبقه ، واستقامت أوربـا فى طريقها المعروفة اليوم ، وقد أشرنا الى شيء من أسباب ذلك ٠

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته ٠ ولم نر أثرا لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره ٠ ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له فى أن يحتذيها ٠ وقد قامت طوائف منهم فى أزمان مختلفة تصرح بأن هناك فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والأب على الرب الرحيم ٠ وأعرف أن بعض طوائف البروتستانت اليوم ، وان كانت قليلة العدد ، تذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفارى وآكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك ٠

وهل كانت المسيحية فى سالف الأزمان تجاهد من حولهـا من الوثنين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم ٠

انى أرفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحية فى جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتى هى أحسن ٠ ولكنى أرجع الى الكلام فى الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلا ٠

أصدر « مرسوم ميلان » عام ٣١٣ م باعترافه بهذه الديانة ٠ ولقد نقل عاصمة الامبراطورية ، من روما الى بيزنطة لتكون عاصمة مسيحية خالصة ٠ وقد أطلق عليها القسطنطينية نسبة اليه ٠

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن أدم ونوح وابراهيم الى موسى ٠ ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه ٠٠

هبت الوثنية واليهودية والنصرانيـــة لمناواة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأســا ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شـعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيــه أفــواجا من كل ملة ، فأعتقت الهمم ، وأفتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما بعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمـــان على أسرار الوجــود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ٠ ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنــوار العلم فيهم ، ولو يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صدأه وأبرزوه للأنظار ٠

هذا أثر الاســلام وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون فى علوم السموات والأرض وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصــول ٠ وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصـــد ، ومسحوا الأرض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لأهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو ٠

انى أكتفى فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الأمم الغربية اليوم : أقامت النصرانية فى الأرض ستة عشر قرنا

ولم تأت بفلكي واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له ·

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه – قضى الاسلام بألا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ؛ وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليهما – مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدي الانسان ، ويناله استعداده ، لا يحول دونه حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله أو قصوره في نظره ·

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع الى التقدم سبيلا · هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى أخطأ في فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالأسباب الى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ·

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم التشبيه ، وفي عوائدهم التمويه ، وممن تعلموا الاختراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط ·

اتبـع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الأوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباعوا بما كان لهم وما عليهم ٠

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل ، وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) ٠

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسـباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع ٠

يرى كيمون أن يخلى وجـه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو ، لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهر ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما ٠

الا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسـه بمثل حلمهما أن الاسلام أن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة ٠ وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحاق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« انه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره » ٠

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال « انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر » ٠

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو ان شاء الله ٠

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهده فى الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها والا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا ، فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى أهلاكهم والدأب فى أخفائهم ٠

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الأركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا أنا معهم من المنتظرين ٠

هانوتو والاسـلام

رد الامام الثانى على هانوتو وفيه بحث الجامعة الاسلامية

القت الى المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام ·

ولم أشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صـادر عن رأى مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضـمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى أذهان الناس أثرا لا يحسن السكوت عنه ·

وقد جاء فى كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشىء من سـوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم · وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصـام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقال له سابق · فلا يليق بذى غيره على الحق الا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه فى جريدة المؤيد الفرنسية وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا ·

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمثال · لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو · فقد

أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال ، وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا ان يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة أو يكون مثلهم ، فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأمانى ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى ، وهو من روح قائله خلى ، حتى اذا دهموه وهو فى غفلته وأخذوه فى نومه أو يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق ٠

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبى منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح » ٠

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهى غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة ٠

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أو تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله فى عالم الاحياء ٠

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا فى قوله (العدل تكافؤ القوى) ٠

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا نشتغل الا بما يجرى فيها ، اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قـوة الأمم التى تأبى الاستعمار فيها ٠ وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت فى المدنية ، وما أصلحت من شئونهـا الداخلية ، وأعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الأعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له ، وأطلقت له القوة ، وهى كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حـفظ بـه الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة نفوسهم ٠

وقد تألفت قوى الأمم الأوربيـة من عناصر هى العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح ٠ وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار ، وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفى فتح المغـالق التى لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده

أن يمهدها . وهو من الأمور المسلمة التي لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة في بيانه غير أني أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها في هذا المقام :

تعلم أحد أبناء لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر في ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وانها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة انما يهمها في سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان ، يبنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنسية وطلب منه أن يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه ، ثم عاد الى صاحبه وقال ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وأن الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة في سلطتها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت وأعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك .

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملك في المساعدة قريبا ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من

رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته . كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته .

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق رضى الله عنه ، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوربيين الى يوم القيامة .

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى أمرين : الأول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والأمر الثانى سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الأوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من أعماله ، وان أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره .

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية .

أؤكد لمسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هى عليه ، لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما ، وان ما علق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحى الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسى الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ما توهم فيها .

وانى أعرض الحقيقة كما هى لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد

أمثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من المسلم حربا ولا من السكون شغبا ·

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض ، وان نسمة من نفس الرحمة مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه ، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام، ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك · ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا فى هذر المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين ·

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله · جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك · وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع

شئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته • بل كان قائده فى جميع وجوه سيره ، فان شاء قائل أن يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة فى البيت لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعى الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وما ظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع « أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ أى خشونته » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الأغنياء فى الاحسان وأسوة الفقراء فى حسن الصبر •

هكذا كان الاسلام مهماز للمسلمين يحثهم الى جلائل الأعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى استغراق الأحوال وتقويم الأفكار ، وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم •

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا فى دينه ، وان كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات ، بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ، ينساق اليهاالأمر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه •

واأسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وضعه ، وتغير فى مداركه طبعه ، وتبدلت فى فهمه حقيقته ، وانطمست فى نظره

طريقته ، وحق فيه قول على كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » ٠

لا أبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها ٠ عرضت البدع في العقائد والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله ٠

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم مايلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده . حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان ٠ ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الا القليل النادر ، أما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الأعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض لاترقى بهم

أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ،أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين :

الأول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قل أفراده فى معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه الا رسوم لايكاد يدركها نظر النـاظر ، والمشتغلون منهم فى بعض البـلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكى منهم وقليل ما هو ، أن ينظر فى كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمهـا بمعنى أن يثق بـأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقـد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينيه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ٠ ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ، ولا يجب عليهـم أن يأمروا بمعـروف ولا أن ينهواعن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ فى فهم دينهم لا يسـاويـه فى سوء عاقبتـه خطأ ، وللكثير منهم بل الأغلب من سوء الفهـم فى الدين ما لا حاجة الى عده ، ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق فى العلم لا يظهر له أدنى أثر فى صلاح الأمة كما هو مشهود ٠

والفريق الثانى من يهيئـه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق ، ان كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذى يعده له والده ، على أن ما يحصل أما لفظ يحفظ أو خيـال يخـزن ، والمدار على الوصول الى ورقـة الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون الى أوربا لاستكمال التربيـة فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفه قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الأبواب

ينتظرها ، فاذا مل الانتظار أو تقضي زمن العمل وجدته في مقهى أو ملهى يسرف في أوقاته ويفسد في أدواته ، والصالحون منهم ، وقليل ماهـم ، لايهمهم شأن العامـة شقيت أو سعـدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة ، واستثنى منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهـم وتجنى الأمم ثمار أعمالهم •

وهذا شأن الرجال مع العلم •

أما النساء فقـد ضرب بينهن وبين العلم ما يجب عليهن في دينهن أو دنياهن بستار لايدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحـكم العادة ، وحارس الحياء ، وقليـل جـدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهن بالخرافـات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم الا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعـده الجنـة ويمنيه السعادة •

أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل ، وقعد عن العمل • ووكل الأمـر الى الحوادث تصرفـه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه •

أخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم . وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم ، وانرفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض الى عمل لتـلافى ما عرض من خلل ، أو مدافعـة الحادث الجلل ، مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه •

أخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف فى شئونه ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه ، ومن رأى حزن الأباء اذا طلب أبناؤهم لاداء الخدمة العسكرية ،وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منها حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شىء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادرا على شىء بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلى عنه ، من حيث أنهم تركوه وشأنه ، لا يساعدونه فى حادث ، ولا يعينونه فى أمر مهم ، اللهم الا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجىء اليه بالرغم منه . ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم الا ما يمس شخصه منها .

أما الحكام ،وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه ، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لانفاقها فى أرضاء شهواتهم ، لا يرعون فى ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة الا حل بها العذاب .

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى فى العقائد ، وطرق متخالفة فى السلوك ، وآراء متناقضة فى الشرائع، وتقليد أعمى فى جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ،

وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق ، ولا يفزع من باطل ، وانما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له في الاسلام في معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم ان فساد العامة لا دواء له ، وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وانه لايمر عليهم يوم الا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الأخبار أو خطئهم في فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول ، وكفى في شناعتها قوله جل شـــأنه « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال في الهمم ، وضعضعة في العزائم ، وفساد في الأعمال ، يبتدىء من البيت ، وينتهي الى الأمة ، ويسر في كل طبقـــة ، ويجول في كل دائرة ، خصوصا من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى ، فانما عرض على أقوام في بعض البلاد الاسلامية ، تبعا لهذه البدع الضالة ، على أنني لا أسلم انهم بلغوا فيـــه أدنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب .

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطئهم في فهم أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا سلط الله عليهم من يسلبهـم نعمـــة لم يقوموا شكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه الا اذا

تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواسط القرن الماضى من سنى الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث فى الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية ان شاء الله .

مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال أن الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من البدع ، تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الأمة ، فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها ، فان أتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شىء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سـواء في مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهـم لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحـرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر ، وسالم متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فان أهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض ، مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال ، وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لاينال الا بحق ، والأجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المائة ، يرجع الى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها ، والأجانب يطلبون الكسب في أرجائها وهي في أرفع مقـام من عزتهـا .

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجـه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخـر بسورية أو بالهنـد أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فاذا نجح الدواء في موضع ، كان السليم أسوة للمريض في موضـع آخـر ، أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل الى مستشفى المجانين .

يكتب بعض أربـاب الأقلام من المسلمين فى حكمـــة الحج ويقول : انه صلة بين المسلمين فى جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منـــه ، وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه ، فان الغرض منـــه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهــم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم ، وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو علم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الأوربيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانيـــة والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعـــو الى عقــد الولاء له وهذا أمر لا ينبغى أن يدهش أحـدا فان هذه الدولة هى أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقـــائد ، وتهذيب الأخلاق ، بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية ، فأى شىء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو ؟

بقى الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح ، ولكنـــه لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينيـــة التى كانت للبابا على الأمم المسيحية ، عندما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ، ويصنع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاســـلامية حقوقا للحاكم الأعلى وهو الخليفـــة

أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية ، وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم ان أمكن ، وهذه الدولة العثمانيـــة قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم ، وعدد الحاكمين ومللهـــم ، وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضــــاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها ، وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك فى الدين ، فالسلطة المدنية هى صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها فى صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوسا ، فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما اســـتطاعوا المجاهرة بمخالفته فى ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضــــع المغارم والمبالغة فى التبذير الذى جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال .

ان فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق ، وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروســـــيا ملك وزيس كنيسة معا ، فلم لايسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟

لا أظن أن مسيو هانوتو يسى الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين ، فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الأوربيين فى اكتساب العلوم

وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله ٠

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربـا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى حد الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ـ سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الأهرام ، ومن بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لا دينية لاهوتية ٠

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبية ، ولا نزال نرى فى خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى أن الدولة الروسـيـة تفضلهـم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسى ؟

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم فى مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ، ولا ينفى اخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصـلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحـد ؟

هل هم التونسيون ، وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم

أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لمجرد أنها أطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله انهم لا يأتمنون مسـيحيا عثمانيا ، والعثمانيون منهـم المصريون ومنهم غيرهم ، فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الأقباط فى جميع مصالح الحكومة ، ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة من الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو ، فانه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب للحوادث العرابية ، شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كما افتخر بذلك مرارا فى جريـدته ، وان كانت له هنات معروفة فأين فقد هذه الثقـة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد !

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزى ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزى ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياتهم ،

وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمي ، فأى دليل على الثقة أكبر من هذا ؟

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنسيين ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلــك .

كثيرا ما أغرى الاوربيون من فرنسيين وأمريكيين من أرباب المدارس فى مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية ، وفروا ببعضهم من القطر المصرى الى البلاد الأجنبية، وأحرقوا أكباد آبائهم ، ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون فى مدارس الجزويت ، وكثير من أبناء الأعيان فى مدارس الفرير فأى ائتمان يفوق هذا الائتمان ؟

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا فى المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ، ويغالون فى الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبى ، من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص ، أو غش ، من صدق أو كذب ، من أمانة أو خيانة ، من قناعة أو طمع ، حتى آل الأمر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال ! فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب الأهرام وجناب مسيو هانوتو ؟!

وأما العثمانيون من غير المصـــريين فاذا ارتقينـا الى الدولـة

وسلطانها أيده الله ، وجدنا أن نظام الدولة قاض باستخدام المسيحيين فى اداراتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة مالم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته ، والاحسان اليه برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد ، وصاحب الجريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحى أن يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى ادناه منه وقبله فى مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين ، أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنسيون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا وهى دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية ، وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة مسيو غلادستون ، فأعقبها اضطراب فى تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ، انا نراها اليوم تتراجع ، وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون والذى أحب ان يعرفه مسيو هانوتو أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم ، وانما كانت فى سابق الأيام دولة فتح وغلبة ، وفى

أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين فى شىء من معاملاتها مع الأمم الأوربية .

امبراطور المانيا جاء الى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر وبهر . يجىء الأمراء المسيحيون من الاوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه فى بلاد مسيحية ، وينفق فى تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة اليه . أليس ذلك لمجاملتهم وأكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفى بالرسميات ولا يزيد عليها ، ولكن عهد فى معاملته ما يفوق الرسمى بدرجات ، فان سلمنا أن سياسة أوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هى كذلك ومسلموها تبع لها .

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت ، وينسبون وقائعها الى التعصب الدينى ، بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيرا من الارمن فى خدمة الدولة الى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الدينى فان المسيحيين وسواهم فى الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الاوربيون لامكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الأقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه فى أوربا لا فى آسيا .

لا أغالى حين أقول أن المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير ما يتمنى

المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الأهرام أن يروى عن المسلمين كافة مثل مارواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، وانى أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا فى ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغى أن يعول على مثله فى أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه .

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام فى السياسة ، وبحث فى علاقة المسلمين مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه فى أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها فى المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ما جرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين ، وهو مالايرضاه أحد منهـــم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفى انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين ألا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٤٢٣٤

ISBN — 977 — 01 — 3359 — 0



فى منتصف القرن التاسع عشر عادت البعثات التعليمية التى أرسلها والى مصر محمد على وبعودتها بدأ عصر التنوير فى الثقافة المصرية على أكتاف رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وفرح أنطون وغيرهم.

هكذا بدأت رحلة التنوير رحلة استشراف المستقبل وطموح الارتقاء بالإبداع والبحث عن الحق والعدل والحرية والجمال.. رحلة هدفها غرس قيم الحرية وتحكيم العقل والتسامح - حق كل الناس فى العيش بحرية وسلام.. رحلة الحق والواجب والتحرر الوطنى والوحدة الوطنية والتمثيل النيابى وحقوق المرأة.. وكلها مبادئ شكلت الوعى العام وأرست قواعد التعددية والديمقراطية فى الثقافة المصرية.

وتواصلت حركة التنوير فى الثقافة المصرية من جيل الرواد إلى الجيل اللاحق طه حسين وعباس العقاد وقاسم أمين - لتثرى المشهد الثقافى المصرى وتصبح الأسس والدعام قامت عليها حركة النهضة الثقافية المصرية فى مواجهة والحركات الرجعية.. ومازالت قوافل التنوير سائرة إلى هـ أجل إنسان مصرى يحلم بمستقبل أفضل وعالم أروع وأجم

سوزان مبار



الثمن: خمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية للكتاب